بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

لم أكد أعود من أوربا سنة ١٩١٩ حتى حدث أن الطبعة الأولى من هذا الكتاب قد نفدت ، وأن كثيرًا من الناس يرغب فيه ، وأن من الخير أن أعيد لهم نشره ، وكنت أود لو أجبت إلى ذلك ، ولكنى جعلت أرجئ هذا من وقت إلى آخر رغبة فى أن أعيد النظر فى الكتاب فأغير وأبدل ؛ لأنى كنت وما زلت أعتقد أن فيه فصولاً وأقسامًا تحتاج إلى التغيير ، لا لأنى رجعت عن رأيى فيها ، بل لأن هذا الرأى موجز مختصر يحتاج إلى شىء كثير من البسط والتفصيل .

فالمقالة الخامسة من هذا الكتاب مع أنها ألمت بأمهات المسائل من الفلسفة العلائية شديدة الإيجاز تحتاج إلى أن يفصل القول فيها تفصيلاً يفى بما بينها وبين حكمة الهند وفلسفة أبيقور من صلة أعتقد الآن أنها لا تقبل الشك ولا تحتمل النزاع .

وفى المقالة الثالثة ألوان من الإيجاز فى وصف الآثار الأدبية لأبى العلاء كنت أود لو استبدلت بها شيئًا من الإطناب ، ولكنى جعلت ألتمس الوقت فلا أجده ؛ إذ كانت الجامعة وما اضطرتنى إليه من درس التاريخ اليونانى والاجتهاد فى نشر شىء من الآثار اليونانية قد أخذت علىّ وقتى ولم تتح لى الفراغ لأبى العلاء .

أخذ الناس يطلبون الكتاب ، وعلمت أنى لن أجد فى هذه الأيام ما أنا فى حاجة إليه من وقت لتغيير ما أريد أن أغير ، فلم أر بدًّا من الإجابة إلى طبع هذا الكتاب على صورته الأولى مرجئًا تغييره وتفصيله إلى وقت آخر .

ولقد أعلم أن ناسًا قرأوا هذا الكتاب فدفعوا أو اندفعوا إلى نقده بعلم وبغير علم ، مخلصين وغير مخلصين ، ولقد كنت أود لو وجدت فيما كتبوا شيئًا يستحق أن

يسطر ويناقش . ولكنى آسف الأسف كله لأنى لم أجد فيما كتبوه إلا شتماً وسباً ، وإلا طرقاً فى الفهم معوجة ، ومناهج فى التفكير عتيقة ، فمن الواجب على لنفسى وللقراء ألا أضيع الوقت فى العناية بذلك ومناقشته . وما زلت أنتظر نقد الناقد المخلص لا يدعوه إلى نقده إلاّ حب العلم والرغبة فى الإصلاح . فأما هذا الذى يبغضك ويحقد عليك فيتخذ النقد سبيلاً إلى إيذائك والنيل منك ، فخليق بك أن تتركه وشأنه ، وأن تنصرفَ عنه إلى ما ينفع ويفيد .

إذاً فأنا أعيد نشر هذا الكتاب فى سنة ١٩٢٢ على صورته فى سنة ١٩١٤ لا مغيراً ولا مبدلاً . وأنا أرجو أن أوفق إلى تكميله . ولو أنى ضمنت مواتاة الزمان لوعدت القراء بألا يمضى عليهم زمن طويل حتى يكون بين أيديهم كتاب جديد فيه درس مفصل لرسالة الغفران ، ولكن التوفيق بيد الله يمن به على من يشاء .

طه حسين

القاهرة فى فبراير سنة ١٩٢٢

obeikandl.com

مقدمة

١

أستاذنا الجليل سيد بن على المرصفى أصح من عرفت بمصر فقهاً فى اللغة ، وأسلمهم ذوقاً فى النقد ، وأصدقهم رأياً فى الأدب ، وأكثرهم رواية للشعر ولا سيما شعر الجاهلية وصدر الإسلام .

كان يدرس الأدب فى الأزهر الشريف ، وبدأت أختلف إليه ولما أعد السادسة عشرة . فلزمته أربع سنين ما أذكر أنى انقطعت عن درسه ، أو تخلفت عن مجلسه . ولم يقف الأمر بينى وبينه على ما يكون بين الأستاذ والتلميذ من الصلة ، بل نشأ بيننا نوع من المحبة يشوبها فى نفسى الإجلال والإكبار ، وفى نفسه العطف والحنان ، وتبعث كلينا على أن يتعصب لصاحبه ، ويناضل عنه ، على نحو ما يكون بين الأبناء البررة والآباء المشفقين .

سعدت بهذا الحب قديماً ، وسأظل سعيداً به طول الدهر ؛ لأنه صادف قلبى فى غضارة الطفولة ، ونضارة الصبا ، ولأنه حب مصدره العلم لم تفسد عنصره المادة ، ولم تكدر جوهره مآثم هذه الحياة .

حب الأستاذ ودرسه قد أثرا فى نفسى تأثيراً شديداً ، فصاغاها على مثاله ، وكونا لها فى الأدب والنقد ذوقاً على مثال ذوقه .

إيثار للبدوى الجزل على الحضرى السهل ، وكلف بمناحى الإعراب فى فنون القول ، ونبو عن تكلف المولدين لأنواع البديع وانتحالهم لألوان الفلسفة والمنطق ، وبغض شديد لحكم الضرورة فى الشعر ، وللفظ السهل المهلهل يقع بين الألفاظ الجزلة الفخمة ، إلى غير ذلك مما هو إلى مذهب القدماء من أئمة اللغة ورواة الشعر أدنى منه إلى مذهب المحدثين من الأدباء والنقاد .

كل قديم فى هذا المذهب جيد خليق بالإعجاب لرصانته ومتانته ، وكل جديد فيه ردىء سفساف لحضارته وهلهلته . فإذا كان من المحدثين من أخذ نفسه بمذاهب

القدماء ، فسلك مسالكهم وتأثر خطاهم فهو حقيق أن نقرأه وننظر فيه ، وإلاّ فدرسه لألسنتنا فساد ، وللكاتنا كساد ، وعلينا أن نلقى بيننا وبينه من الصد والإعراض حجاباً صفيقاً .

مسلم بن الوليد ، وحبيب بن أوس ، وأبو الطيب المتنبى ، وأبو العلاء المعرى ، قوم تكلفوا البديع ، وأخضعوا المعنى للفظ . وتعمقوا فى درس مذاهب الفلاسفة ، ولم يخل كلامهم من يونانية تباعد بينهم وبين مذاهب العرب البادين ، فدرسهم خطل ، والعناية بهم حمق ، والإعراض عنهم إلى الشعراء المطبوعين إصابة وتوفيق .

كنا نسمع ذلك من أستاذنا الجليل فى كل يوم سماعاً موصولاً غير مقطوع ، فلم نكتف بالطاعة والإذعان ، بل غلونا فى مقت هؤلاء الشعراء ؛ حتى رأينا بغضهم علينا حقاً ، والنعى عليهم لأدبنا مكملاً . وحتى كنا نسمع البيت من الشعر لا يعجبنا ، فإذا أردنا المبالغة فى ذمه وتقبيحه قلنا : ما أشبهه بشعر المتنبى ، وما أظهر أسلوب أبى العلاء فيه . وإنا لنجهل المتنبى وأبا العلاء الجهل كله .

كان الأستاذ يدرس لنا ديوان الحماسة ، ويملى علينا شرحاً له حسن التأليف والتحقيق ، وكان يعنى بنقد غيره من الشراح ولا سيما الخطيب التبريزى .

والخطيب التبريزى ينقل أكثر شرحه عن أبى العلاء ؛ لأنه تلميذه . وأبو العلاء كلف بالنحو والصرف والعروض . فكثرت فى كتاب الخطيب مسائل الإعراب والتصريف ، وما يشبهها من المسائل العلمية اللغوية .

وأستاذنا الجليل مبغض لهذه المسائل لا يعنيه إلا اللغة والنقد . فكان كثيراً ما يسخر لنا من أبى العلاء وتلميذه ، ويهزأ بما تكلفاه من العلم .

وعلى الجملة وفق الأستاذ توفيقاً لم يحاوله ولم يتكلفه إلى أن يبغض إلينا أبا العلاء . ولست أنسى مناقشة شديدة كانت بينى وبين ناشر هذا الكتاب فى بعض أسمارنا ؛ يمدح أبا العلاء وأذمه ، وينتصر له وأتعصب عليه .

٢

أنشئ قسم الآداب فى الجامعة ، ودعى إليها جلة الأساتذة من المستشرقين فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا ، وانتسبت لهذا القسم ، وأخذت أسمع الدروس فيه . فإذا

ألوان من الدروس لم أعرفها من قبل . وإذا فنون من النقد لم يكن لى بها عهد . وإذا دارس الأدب لنفسه ينبغى أن يدرس جيده ورديئه . وأن يتقن غثه وسمينه على السواء من غير تفاوت ولا تفريق . وإذا الباحث عن تاريخ الآداب ليس عليه أن يتقن علوم اللغة وآدابها فحسب ، بل لا بد له أن يلم إلماماً بعلوم الفلسفة والدين ، ولا بد له من أن يدرس التاريخ وتقويم البلدان درساً مفصلاً . وإذا الباحث عن تاريخ الآداب لا يكفيه من درس اللغة حسن البحث عما فى القاموس واللسان وما فى المخصص والمحكم ، وما فى التكملة والعباب . بل لا بد له مع ذلك من أن يدرس أصول اللغة القديمة ، ومصادرها الأولى ، وإذا الباحث عن تاريخ الآداب لا بد له من أن يدرس علم النفس للأفراد والجماعات إذا أراد أن يتقن الفهم لما ترك الكاتب أو الشاعر من الآثار . وإذا اللغة العربية وحدها لا تكفى لمن أراد أن يكون أديباً ومؤرخاً للآداب حقاً ؛ إذ لا بد له من درس الآداب الحديثة فى أوربا ، ودرس مناهج البحث عند الفرنج ، بله ما كتب الأساتذة الأوربيون فى لغاتهم المختلفة عما للعرب من أدب وفلسفة ومن حضارة ودين .

كل هذه عقبات ظهرت لى حين سمعت دروس الأساتذة المستشرقين فى الجامعة. ولست أزعم أنى وفقت إلى تذليلها ورياضتها كافة . وإنما أقول إنها قد غيرت رأيى فى الأدب ومذهبى فى النقد التغيير كله . فلم يبق من هذه الآثار الحسان التى تركها الأستاذ المرصفى فى تلك النفس الناشئة إلا دقة النقد اللفظى ، والحرص على إيثار الكلام إذا امتاز بمتانة اللفظ ورصانة الأسلوب .

٣

مذهب الأستاذ المرصفى نافع النفع كله إذا أريد تكوين ملكة فى الكتابة وتأليف الكلام ، وتقوية الطالب فى النقد وحسن الفهم لآثار العرب ، وليس يريد الأستاذ أكثر من ذلك . ولكن هذا المذهب وحده لا يكفى لإجادة البحث عن الآداب وتاريخها على المنهج الحديث .

والمذهب الذى أحدثته الجامعة فى درس الآداب العربية بمصر نافع النفع كله لاستخراج نوع من العلم لم يكن لنا به عهد مع شدة الحاجة إليه . وهو تأريخ

الآداب تأريخًا يمكننا من فهم الأمة العربية خاصة . والأمم الإسلامية عامة ، فهمًا صحيحًا ، حظ الصواب فيه أكثر من حظ الخطأ ، ونصيب الوضوح فيه أوفر من نصيب الغموض .

٤

بين مذهب الأستاذ المرصفى ومذهب الجامعة المصرية فى درس الآداب نشأ مذهب مشوه مختلط ، ليس بالقديم ولا بالحديث ، وليس بالنافع فى تكوين الملكات الأدبية ، ولا بالمفيد فى تعليم مناهج البحث ، وهو مذهب العامة من أساتذة الآداب فى مدارس مصر ، لا يتعمقون فى درس الآداب على المذهب القديم فيصقلوا ذوق الطالب ، ويقوموا ميله إلى النقد اللغوى ، ولا يذهبون مذهب العلماء من الفرنج فى تحليل الآداب وردها إلى مصادرها الأولى من المؤثرات فى الحياة النفسية وغير النفسية فى الأفراد والجماعات . وإنما يسمون طائفة من الشعراء والكتاب ويؤرخون مولدهم وموتهم ، ويلقنون الطلاب شيئًا من منظومهم ومنثورهم — لا يتجاوزون ذلك ، ولا يزيدون عليه . وهم يسمون هذا النحو الممسوخ من الدرس تاريخ الآداب . وإنما مثلهم فيه ما قال الأول :

حسد القطاة فرام يمشى مشيها فأصابه ضرب من العقـــال

من هنا كانت نتيجة الدرس الأدبى فى مصر غير قيمة ولا مجدية ؛ لأن الطلاب لا يجدون فى مدارسهم ولا فيما بين أيديهم من الكتب ما يحبب إليهم أدبهم ، ويرغبهم فيه . فهم يؤثرون — ولهم العذر — أن يقرأوا آداب الفرنج ويهيموا بها . ومن هنا نشأت هذه الأساليب الحديثة فى الشعر والنثر ، يتأذى بها رجال المدرسة القديمة فى الآداب من غير أن يستطيعوا لها مردًّا .

٥

ليس على الآداب من ذلك بأس . فإن هذا المثال المشوه لا بد من أن يكمل يومًا إذا عنى الناس عناية صحيحة بدرس الآداب على المناهج الحديثة . ولست

أزعم أنا لسنا فى حاجة إل درس الآداب على المنهج القديم ، بل أقول إنا فى حاجة إلى المنهجين معًا ؛ فى حاجة إلى المنهج القديم لتقوى فى أنفسنا ملكة الإنشاء ، وفهم الآثار العربية التليدة ؛ وفى حاجة إلى المنهج الحديث ، لنحسن استنباط التاريخ الأدبى من هذه الآثار .

ولقد كانت طريقة الجامعة فى درس الآداب منذ سنين أدنى إلى تحقيق هذه الحاجة وأوفى بها حين جعلت للآداب درسًا خاصًّا ، ولتاريخها درسًا خاصًّا . فكان أستاذ الآداب يعنى بشرح النظم والنثر ، وبيان دقائقهما ، وإظهار ما فيهما من أسرار البلاغة ، والدلالة على ما يشتملان عليه من عيب . وفى ذلك من تقوية الملكات وتقويم الألسنة ، وإصلاح الذوق الأدبى ما نحن فى حاجة إليه . وكان أستاذ تاريخ الآداب يتخذ ما ترك العرب لنا من الشعر والنثر مرآة يتبين فيها حياة الأمة فى دينها وعلمها وسياستها ، وفى ذوقها الأدبى والفنى ، وفيما لها من حياة اجتماعية واقتصادية . فيفيدنا بذلك فائدتين : يعلمنا مناهج البحث من جهة ، ويمثل روح الأمة فى أطواره المختلفة من جهة أخرى . ولكن الجامعة قد أعوزها المال أو أعوزها الأساتذة المستشرقون . فجمعت بين الفنين لأستاذ واحد . ولسنا نشك فى أنها قد رجعت بذلك إلى حيث وقفت مدرسة القضاء ومدرسة دار العلوم من هذا النحو فى البحث عن حياة الآداب ؛ أى إلى ما لسنا فى حاجة إليه .

الجامعة عائدة إلى منهجها الأول متى وجدت المال ، واستطاعت أن تدعو الأساتذة المستشرقين أو أن يعود إليها طلابها فى أوربا ، فلنمهلها الآن ، ولنأمل توفيقها من إصلاح الآداب إلى ما نريد .

٦

كرّه المنهج القديم إلىّ أبا العلاء وأزال المنهج الجديد من نفسى هذا الكره ، ووقفنى من بعض الشعراء المحدثين والمتقدمين موقف الرجل الحر ، لا يستهويه حب ، ولا يصرفه بغض ، وإنما المجيد والمسىء عنده سواء فى الخضوع لقوانين البحث .

وقد أردت سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف أن أقدم إلى الجامعة رسالة أجوز

بها امتحان عالميتها ، فأخذت أتخير موضوعًا لهذه الرسالة . وما أكثر ما يجد محب البحث من الموضوعات الأدبية فى لغتنا ما لم يتناولها محقق بدرس ولا تمحيص .

عرض لى أن أدرس ما أحدثت الفارسية فى العربية من الأثر أيام بنى العباس ، ولكن جهلى بالفارسية حال بينى وبين هذا الموضوع المفيد .

وعرض لى أن أدرس الروح الدينى فيما ترك الخوارج من الآثار الأدبية ، ولكن قلة هذه الآثار ، لاسيما بمكاتب مصر ، قد حال بينى وبين القدرة على أن أصور هذا الروح تصويرًا واضحًا جليًّا .

وعرض لى أن أدرس ما حدث من اختلاف مذاهب الشعراء فى التعبير عن أغراضهم ، صدر الدولة العباسية ، ولكن هذا الموضوع طريف وقل من يفطن له ، وليس من الحذق لمن أراد أن يكون مجددًا فى الآداب أن يفجأ الناس بما ليس لهم به عهد ولا صلة .

وعرض لى أن أدرس حياة الجاحظ ، ولكنى لم أوفق إلى أكثر كتبه ، فقد ألف الرجل ما يزيد على ثلثمائة كتاب ليس بين أيدينا منها عشرون .

ثم عرض لى أن أدرس حياة أبى العلاء ، ذلك الذى أبغضته ونفرت منه ، ولست أدرى لم حبب إلىّ البحث عن هذا الرجل ؟ ولم كلفت به الكلف كله ؟ ومع أن كتبه قد ضاع أكثرها ، فقد خيل إلى أنى أستطيع أن أجد فيما بقى منها ما يشفى الغليل .

وقد سمعت الناس يتحدثون عن اللزوميات فلا يتفقون فيها على رأى . وسمعتهم يصفون أبا العلاء بالإسلام مرة وبالكفر مرة .

ورأيت الفرنج قد عنوا بالرجل عناية تامة . فترجموا لزومياته شعرًا إلى الألمانية ، وترجموا رسالة الغفران وغيرها من رسائله إلى الإنجليزية ، وتخيروا من اللزوميات والرسائل مختارات نقلوها إلى الفرنسية . وأكثروا من القول فى فلسفته ونبوغه .

ورأيت بينى وبين الرجل تشابهًا فى هذه الآفة المحتومة . لحقت كلينا فى أول صباه ، فأثرت فى حياته أثرًا غير قليل .

كل ذلك أغرانى بدرس أبى العلاء . وأنا أحمد هذا الإغراء وأغتبط به . فقد

انتهى بى إلى نتيجة طريفة . وما كنت أنتظر ولا كان ينتظر الناس أن يصل إليها باحث .

هذه النتيجة هى فهم فلسفة أبى العلاء وردها إلى مصادرها ردًّا مجملاً . ثم فهم الروح الأدبى لهذا الحكيم . وقد كان من قبل ذلك شخصًا مبهمًا لا يعرف الناس منه إلا اسمه تحيط به الشكوك والأوهام .

٧

وضعت هذا الكتاب وقدمته إلى الجامعة وكان امتحانه بين يدى الجمهور . وتحدث الناس من أمره بما علموا وما لم يعلموا . وأرجف قوم بأنى قد جنيت على المسلمين فأخرجت من بينهم رجلاً هو من خلاصتهم . أو جنيت على أبى العلاء ، فأخرجته من بين المسلمين . ولو أنهم أجادوا التفكير واصطنعوا الأناة لعرفوا أنى لا أملك أن أدخل فى الإسلام ولا أن أخرج منه أحدًا . وأن ليس على أبى العلاء بأس عند الله إذا كان مسلمًا فعده بعض الناس غير مسلم . ولو قد كانوا قرأوا الكتاب ودرسوه لعرفوا أنى لم أقل فى أبى العلاء إلا ما قال فى نفسه . ولم أصوره فى هذا الكتاب إلا بما صور به نفسه فى اللزوميات وغيرها من كتبه . على أنى مع ذلك لم أوفق إلى نشر الكتاب إبان تحدث الناس فيه ؛ إذ كان الاستعداد للرحيل إلى أوربا يحول بينى وبين ما يحتاج إليه ذلك من الفراغ والدعة . ثم مضى على هذا أكثر من سنة . وقضى الله أن أعود إلى مصر ، وأن يلح علىّ أصدقائى فى نشر هذا الكتاب .

وقد كانت همتى فترت عن العناية به والتفكير فيه حين شغلنى عنه ما كنت فيه من درس وتحصيل . ولكنى أذنت فى نشره لأمرين : الأول : أنه يمثل طورًا من أطوار حياتى العقلية وأنا رجل شديد الأثرة أحب أن أكون واضحًا لمعاصرىّ ولمن يجيئون على أثرى من الناس وضوحًا تامًّا فى جميع ما اختلف على نفسى من الأطوار . وهذا الكتاب يمثل حياتى العقلية فى الخامسة والعشرين . فلا بأس بإظهار هذا النوع من الحياة للناس . الثانى : أن هذا الكتاب — ولا أريد بذلك انتحال

فخر أو حرصًا على تمدح – يؤرخ الحركة الأدبية فى مصر . فإنى لا أعرف قبل اليوم كتابًا ظهر على هذا النحو من البحث . وربما لا أغلو إن قلت : إنى لا أعرف كتابًا فى الآداب العربية قد وضعه صاحبه على قاعدة معروفة وخطة مرسومة من القواعد والخطط التى يتخذها علماء أوربا أساسًا لما يكتبون فى تاريخ الآداب . فأما أنا فقد وضعت لهذا الكتاب خطة رسمتها رسمًا ظاهرًا فى هذا التمهيد الذى يلقاك بعد الفراغ من هذه الكلمة . وتشددت فى اتباع هذه الخطة فلم أهملها ، ولم أشذ عن أصل من أصولها : حتى كاد الكتاب يكون نوعًا من المنطق أو هو بالفعل منطق تاريخى أدبى ، ليس فيه حكم إلا وهو يستند إلى مصدر . ولا نتيجة إلا وهى تعتمد على مقدمة قد بذلت الجهد فى استقصاء حظها من الصحة . ولست أزعم أن نتائج هذا الكتاب كلها حق من غير شك . ولكنى أعتقد أن إصابتها عندى راجحة ، وأنها إلى اليقين أقرب منها إلى الشك .

جعلت درس أبى العلاء درسًا لعصره ، واستنبطت حياته مما أحاط به من المؤثرات . ولم أعتمد على هذه المؤثرات الأجنبية وحدها . بل اتخذت شخصية أبى العلاء مصدرًا من مصادر البحث ، بعد أن وصلت إلى تعيينها وتحقيقها. وعلى ذلك فلست فى هذا الكتاب طبعيًا فحسب ، بل أنا طبعى نفسى أعتمد فيه ما تنتج المباحث الطبيعية ومباحث علم النفس معًا .

٨

وخصلة أخرى حببت إلىّ نشر هذا الكتاب . وهى أنه يؤرخ حياة الجامعة المصرية . فهو أول كتاب قدم إليها ، وهو أول كتاب امتحن بين يدى الجمهور ، وهو أول كتاب نال صاحبه إجازة علمية منها . ولست أبحث عما يمكن أن يكون لهذه الأولية من القيمة . وإنما أكتفى بهذه الأولية نفسها مغريًا بنشر الكتاب وتخليده وإذاعته بين الناس . ولست أتخذ لهذا الكتاب من أوليته فخرًا . وإنما أتخذ له منها معذرة إن كان فيه بعض النقص . لأنه فاتحة سيتلوها إن شاء الله من غيرها ما هو أكمل منها وأوفى .

٩

فى الكتاب ألوان من القصور أنا أعلم بها من غيرى ، ولكنى قد اضطررت إلى هذا القصور اضطرارًا حين لم أجد الآن سبيلاً إلى الكمال المطلق .

المقالة الأولى من هذا الكتاب مفصلة تفصيلاً شديدًا أوفيها إطالة وإسهاب ، ولكنى تعمدت ذلك لأشرح طريقتى فى البحث للناس ، ولأن القراء جميعًا ليسوا على حظ واحد من العلم بحياة المسلمين أيام أبى العلاء .

والمقالة الثالثة من هذا الكتاب كانت تحتاج إلى شىء من الإطالة فى المقارنة بين أبى العلاء وبين المتنبى . ولكنى أعرضت عن ذلك لأن هذه المقارنة المطولة تحتاج إلى درس مفصل مستقص لحياة المتنبى . وأنا لم أظفر بهذا الدرس . كما أن غيرى من الناس لم يظفر به إلى الآن أيضًا .

والمقالة الرابعة من هذا الكتاب كانت تحتاج إلى شىء من البحث والإطالة فى إحصاء التلاميذ والرواة عن أبى العلاء . والإشارة إلى ما أنتجت لهم صحبته ، ولكنى أعرضت عن ذلك لأن مصادر التاريخ التى كانت بين يدى حين كنت أؤلف هذا الكتاب لم تسعفنى بما كنت فى حاجة إليه . ولأن الوقت قد كان أضيق من أن يسع هذا العمل الكثير .

والمقالة الخامسة من هذا الكتاب كانت تحتاج إلى تفصيل فى المقارنة بين أبى العلاء وبين أبيقور . ولكنى أعرضت عن التفصيل لأن فلسفة أبيقور لا يتقنها إتقانًا تامًّا إلا من قرأ فى اللاتينية شعر لوكريس ، ونثر شيشيرون . وذلك ما لم أوفق إليه الآن . ولعل قراءة الترجمة الفرنسية لهذا الشعر وذلك النثر قد كانت تكفى . ولكن لا أكذب القراء ؛ لم أكن أعرف أن هذا الشاعر وذلك الناثر قد لخصا فلسفة أبيقور تلخيصًا يمكن الاعتماد عليه . وإنما عرفت ذلك فى أوربا حين أردت أن أتخذ من المقارنة بين أبى العلاء وأبيقور موضوع رسالة فلسفية أقدمها لجامعة مونبلييه .

وقد كان من الحق أن أضع فصلاً موجزًا أو مطولاً للمقارنة بين أبى العلاء

وبين عمر الخيام . ولكن المصادر العربية تعوز الباحث عن عمر؛ وآثاره فى الفارسية والإنجليزية ممتنعة على الجهلى هاتين اللغتين ، وهى فى الفرنسية لا تصلح مصدرًا للبحث المستقصى .

ولم أتعمد أن يكون الكتاب مونق العبارة ولا رشيق اللفظ ؛ لأنى لم أرد به إظهار التفوق والنبوغ فى فن الإنشاء ، وإنما أردت أن أصور رجلاً من رجال التاريخ تصويرًا صحيحًا .

فهذه هى الملاحظات التى آخذ نفسى بها قبل أن أظهر الكتاب للناس . ولكل قارئ الحق فى أن يأخذنى بما يعتقد أنه خطأ . وله على الحق أيضًا أن أناقش نقده ، وأن أعترف بالصواب منه . ولكنى الآن على جناح سفر إلى أوربا . وربما لاتتاح لى قراءة الصحف المصرية كافة . فأنا أرجو من الذين يريدون أن ينقدوا الكتاب أن يتفضلوا بإرسال نقدهم منشورًا فى الصحف السيارة أو مكتوبًا فى الرسائل الخاصة إلى ناشر هذا الكتاب ليوصله إلى فى أوربا . ولأتمكن حينئذ من درسه والنظر فيه .

طه حسين

١٤ ديسمبر سنة ١٩٥١

obeikandl.com

تمهيد

١

ليس الغرضُ فى هذا الكتابِ أن نصفَ حياةَ أبى العلاء وحدَه، وإنما نريدُ أن ندرُسَ حياةَ النفسِ الإسلاميةِ فى عصرِه ، فلم يكنْ لحكيمِ المعرَّةِ أن ينفردَ بإظهارِ آثارِهِ المادِّيةِ أو المعنوية . وإنما الرجلُ وما لَهُ من آثار وأطوار نتيجة لازمة، وثمرة ناضجة ، لطائفة من العلل اشتركتْ فى تأليفِ مزاجه ، وتصويرِ نفسِه ، من غير أن يكونَ له عليها سيطرةٌ أو سلطانٌ .

من هذه العللِ : المادىُّ والمعنوى ، ومنها ما ليس للإنسان به صلةٌ ، وما بينه وبين الإنسان اتصالٌ . فاعتدالُ الجو وصفاؤُه ، ورقةُ الماء وعذوبته ، وخصب الأرض وجمال الرُّبَى ، ونقاءُ الشمس وبهاؤُها . كل هذه عللٌ ماديّة[1] تشترك مع غيرها فى تكوين الرجل وتَنْشِيء نفسه . بل فى إلهامه ما يعِنُّ له من الخواطر والآراء . وكذلك ظلمُ الحكومة وجَورُها ، وجهلُ الأمة وجمودها ، وشدةُ الآداب الموروثة وخشونتها . كل هذه أو نقائضها تعمل فى تكوين الإنسان عمل تلك العلل السابقة ، والخطأ كل الخطأ أن ننظر إلى الإنسان نظرنا إلى الشيء المستقلّ عما قبله وما بعده : ذلك الذى لا يتصل بشيء ممَّا حولَه ، ولا يتأثَّر بشيء ممَّا سبقه أو أحاط به . ذلك خطأ ؛ لأنّ الكائنَ المستقلَّ هذا الاستقلالَ لا عَهدَ له بهذا العالَم . إنَّما يأتلف هذا العالَمُ من أشياء يتَّصلُ بعضُها ببعض ، ويؤثر بعضُها فى بعض . ومن هنا لم يكن بين أحكام العقل أصدق من القضيَّة القائلة : بأنَّ المصادَفَةَ محال ، وأنّ ليس فى هذا العالم شيءٌ إلا وهو نتيجةٌ من جهة ، وعِلَّةٌ من جهة أخرى : نتيجة لعلة سبقته ، ومقدمة لأثر يتلُوه . ولولا ذلك لما اتصلت أجزاءُ العالم ، ولما كان بين قديمِها وحديثِها سبب ، ولَمَا شمِلتها أحكامٌ عامَّة ، ولَمَا كان بينها من التشابه والتقارب قليلٌ ولا كثير .

---

(١) لسنا نريد بلفظ « المادية » هنا ما اعتاد الناس أن يفهموا منه ، وإنما نريد ما بينه وبين الحس اتصال .

وليس للمؤرخ المجيد عملٌ إلا البحث عن هذه العلل ، والكشف عما بينها من صلة أو نسبة . فعمله فى الحقيقة وصفى لا وضعى : أى أنه يدل على شىء قد كان ، من غير أن يخترع شيئًا لم يكن . مَثَلُه مثلُ السائح . يعثر فى طريقه بالنهر لا يعرفه أصحاب تقويم البُلدان ، فيدلهم عليه ويهديهم إليه . قد يسمَّى النهر باسمه ، وقد يُجلُّه أصحابُ هذا العلم ، وقد ترفعه أمَّتُه إلى حيث يلقى كبار الرجال ؛ ولكنه مع ذلك مستكشف ، ولم يُوجِد النهر ، بل اهتدى إليه . كذلك شأنُ المشتغلين بالعلوم النظرية والتجريبيَّة ، لهم فضيلةُ الاستكشاف ، فأمَّا فضيلة الإيجاد فليس إليهم منها شىء . فلم يكن من الرياضيين من أوجد المثلث ، ولا من اخترع نسبةً بين عددين ؛ ولم يكن من أصحاب الطبيعة والكيمياء من اخترع قانون الثقل ، أو ابتدع عنصرًا من العناصر . إنما حقائق العلم فى أنفسها قديمة ثابتة واجبة ، فأما الحادثُ العارض ، فعلم الإنسان بها ، واهتداؤه إليها ، سواء فى ذلك حقائقُ اللغة والأدب ، وأصول الفلسفة والحكمة .

وإذا صحَّ هذا كله ، فأبو العلاء ثمرةٌ من ثمراتِ عصره ، قد عمل فى إنضاجها الزمانُ والمكان ، والحالُ السياسيَّةُ والاجتماعية ، والحالُ الاقتصاديَّة . ولسنا نحتاج إلى أن نذكر الدِّين ؛ فإنَّه أظهرُ أثرًا من أن نشير إليه ، ولو أنَّ الدليل المنطقى لم ينته بنا إلى هذه النتيجة لكانت حالُ أبى العلاءِ نفسه منتهيةً بنا إليها ؛ فإنَّ الرجلَ لم يترك طائفةً من الطوائف فى عصره ، إلاَّ أعطاها وأخذ منها ، كما سترى فى هذا الكتاب ، فقد هاج اليهود والنصارى ، وناظرَ البُوذِيِّين والمجوس ، واعترض على المسلمين ، وجادَل الفلاسفةَ والمتكلِّمين ، وذمَّ الصوفيَّة ، ونَعَى على الباطنيَّة ، وقَدَح فى الأمراء والملوك ، وشنَّع على الفقهاء وأصحاب النسك ، ولم يُعفِ التجارَ والصنَّاعَ من العذْل واللومِ ، ولم يُخلِ الأعرابَ وأهلَ البادية من التفنيد والتثريب ؛ وهو فى كل ذلك يَرْضَى قليلاً ويسخط كثيرًا ، ويظهر من الملل والضيق ، ومن السأم وحرَج الصدر ، ما يمثِّل الحياة العامة فى أيَّامه ، بشعةً شديدةَ الإظلام .

فالمؤرخ الذى لا يؤمن بالمذاهب الحديثة ، ولا يصطنع فى البحث طرائقَه

الطريفة ، ولا يرضى أن يعترف بما بين أجزاء العالم من الاتصال المحتوم ، ولا أن يُسَلِّم بأنّ الشيء الواحد على صغره وضآلته ، إنّما هو الصورة لما أوجده من العلل ، ولا يطمئن إلى أن الحركة التاريخية جبريةٌ ليس للاختيار فيها مكان — المؤرّخُ القديمُ الذى يرفُض هذا كلَّه ، ولا يَميل إليه ، مُلزَمٌ مع ذلك أن يبحث عن حياة الأمّة الإسلاميّة ، إذا بحث عن حياة أبى العلاء ؛ فإنّه إنْ لم يفعلْ ذلك ، استحال عليه أن يَفهم الرجلَ ، أو يهتدى من أمره إلى شيء .

٢

نقول الأمّة الإسلامية ، ومن قبْلِ ذلك قلنا النفس الإسلامية . ولعل من الناس من يصفنا بالإسراف فى هذا التعبير ؛ فإنّ أبا العلاء قد كان عربيًّا ، وعاش عيشةً عربيّة ، وأظهرَ آثارَه الأدبية كلَّها باللغة العربيّة . فإذا أراد باحث أن يستقصى أمره ، كان خليقًا أن يبحث عن حال الأمّة العربية فى عصره ، لا عن حال الأمّة الإسلاميّة . وبين اللفظين فرقُ ما بين اللفظ الضيّق المحصور ، واللفظِ الواسع الحُدود . كلاّ . ربما كانت الأمّة العربيّة أشدّ الأمم تأثيرًا فى تكوين المِزاج النفسىّ لأبى العلاء ؛ فإنّ الرجلَ قد أنفق حياتَه فى درس الأدب العربى ، والتعمق فيه ، حتّى استحال أو كاد يستحيل إلى كتلة عربيّة خالصة . ولكنّ من الحق أنّ الأمم الإسلامية الأخرى ، لها حظٌّ غيرُ قليل فى تكوين الرجل ومِزاجه ، ولا سيّما العلمىّ والفلسفىّ ، فقد بيّنّا وسنُبيّن ، أن الرجل لم يترك فرقة ولا طائفةً إلاّ عَرَض لها . ومن الظاهر أنّ أكثرَ هذه الفرق لم يكن عربيًّا خالصًا ، وربما لم يكن له من العربيّة حظٌّ ، إلاّ اللغة ، فلا شكّ فى أنّ صلةً شديدة ، كانت بين أبى العلاء وبين الأمم الإسلاميّة غير العربيّة .

٣

الأمم الإسلامية ، هذا اللفظ أيضًا ضيق فى نفسه ، إلاّ أن نتوسّع فيه ، وندُلّ به على معنًى وضعىّ جديد ، فنفهم منه — إذا أطلق — جميعَ الذين دانوا لحكم المسلمين ، أو سكنوا أرضَهم ، أو اشتدّت بين المسلمين وبينهم الصِّلَة .

ذلك لأنّ أبا العلاء قد عرض لغير المسلمين، من أصحاب النِّحل والديانات، بل قد درس فلسفة اليونان ، الذين لم يكن بينه وبينهم عهد ولا جامعةٌ زمانية ؛ لبُعد الأمد وطول المدة . إلاَّ أنّ الرجل إنّما درس هذه الفلسفة فى كتب إسلاميّة؛ أى فى كتب أُلِّفَتْ أو تُرجمت فى ظلّ المسلمين .

٤

إذنْ فليس لنا بُدٌّ من أن نبسط البحثَ ، ونمدّ أطرافه ، حتى نصل بها بين أقصى المغرب وأقصى الشرق ، فى كثير من الأحيان ، غيرَ محصورين فى هذه القرية الضيقة ، القائمة بين حلب وحماة ؛ بل قد نُضطَرّ إلى أن نترك عصرَ أبى العلاء ، ونرجعَ مع الاستقصاء التاريخىّ إلى عصر الفلسفة اليونانية والهندية ، قبل المسيح بقرون .

وقد نتجاوزُ القرن العاشر لميلاد المسيح ، والقرنَ الحادىَ عشر ، وهما العصران اللذان عاش فيهما أبو العلاء ؛ قد نجاوزهما إلى هذا العصر الجديد الذى نحن فيه، لنقارن بين آراء الرجلِ وكثيرٍ من الآراء المُحْدَثة ، التى تكشّفَ عنها عصرُ الفلسفة والاختراع .

٥

يدل ما قدّمناه على أنا نرى الجَبْر فى التاريخ ؛ أى أنّ الحياة الاجتماعيّة إنّما تأخذ أشكالَها المختلفةَ ، وتنزل منازلَها المتباينة ، بتأثير العلل والأسباب ، التى لا يملكها الإنسان، ولا يستطيع لها دفعًا ولا اكتسابًا . ذلك رأى[1] نراه ، وسنثبِته فى موضعه من الكتاب .

وإنّما نقول هنا : إنّ هذا الرأىَ سيُلزمنا أن نسلكَ فى البحثِ عن حياة أبى العلاء طريقًا خاصّة ، ربما لم يألفها المؤرّخون ؛ ذلك أنّا لا نعتقد انفرادَ الأشخاص بالحوادث ، وإنّما نعتقد أنّ الحوادث أثرٌ لطائفة من المؤثرات، وعلى

(١) لسنا نبتدع هذا الرأى ، وإنما نوافق فيه كثيراً من فلاسفة أوربا وفلاسفة المسلمين .

هذا لا نستبيح لأنفسنا أن نُضيف أثرًا من الآثار إلى شخص من الأشخاص، مهما ارتفعت منزلتُه، وعلت مكانته، ومهما عظُم أثره وجلّ خطَره، وإنّما كلُّ أثر مادّىّ أو معنوىّ، ظاهرةٌ اجتماعيّة أو كونيّة، ينبغى أن تُردّ إلى أصولها، وتعادَ إلى مصادرها، وأن تُستقَى من ينابيعها، وتُستخرَجَ من مناجمها؛ وهى جماعة العلل التى أشرنا إليها آنفًا. فليس المأمون وحدَه هو الذى ابتدع فتنةَ القولِ بخلق القرآن، وإنّما تلك فتنةٌ أحدثَها عصرُه، واندفع المأمون بحكم المؤثّرات المختلفة إلى أن يكون مُظهِرَها، كما اندفع خلفاؤُه من بعده إلى ذلك بحكم هذه المؤثرات.

إنّما الحادثةُ التاريخيّةُ والقصيدةُ الشعريّة، والخطبة يُجيدها الخطيب، والرسالة ينمّقها الكاتبُ الأديب، كلُّ أولئك نسيجٌ من العلل الاجتماعية والكونيّة، يخضع للبحث والتحليلِ، خُضوعَ المادّة لعمل الكيمياء.

٦

من هنا يَعرِض لنا أحيانًا، أن نرفُض كثيرًا من الروايات التى أحصاها المؤرّخون فى كتبهم من غير تثبُّت ولا تحقيق؛ لقلّةِ نصيبهم من النقد، أو لانقطاع الوسائلِ بينهم وبين إصابةِ الحق. نرفضها إذا دلّ البحثُ العقلىّ والاجتماعىّ على غير ما تدلُّ عليه؛ فإنّ هذا البحثَ، من غير شكٍّ ولا ريب، أصدقُ منها دَلالةً، وأوضحُ طريقًا.

نعم، ومن هنا لا نستبيح لأنفسنا أن نحمَدَ الأشخاصَ أو نذمّهم، بحسن ما ينسَب إليهم من الآثار أو قبحِه، فإن الذمّ والحمدَ مع قلة غَنائهما فى التاريخ، ليسا من عمل المؤرّخ، بل من عمل الرجلِ الذى قصَر حياته فى صناعة المدح والهجاء. بل إنّ مذهبَنا فى التاريخ، يمنعُنا من ذلك، ويُحرّمه علينا؛ فإنّا لانؤمن بانفراد الأشخاص ولا استقلالهم بالأعمال. وإذا لم ينفردوا بها ولم يستبدّوا بالتأثير فيها، كان من الواضح أنّهم ليسوا أحرياءَ بما يُسدَى إليهم من حمد أو هِجاء.

٧

ولقد مضت سُنّةُ المؤرخين من قومنا ، برواية الأخبار والحوادث ، لا يهملون تحليلها فحسب ، بل يُهملون أيضًا ذكرَ المصادرِ التى استقَوا منها رواياتهم ؛ يهملونها إيثارًا للإيجاز ، أو غلُوًّا فى الثقة بأنفسهم ، أو إكبارًا لها عن أن تحتاج إلى استدلال كأنّ الصدقَ لهم واجب ، والعصمةَ عليهم موفورة ؛ وكأنّ وقوعَ الكذبِ منهم ممتنع ، ونسبةَ الخطأ إليهم جُرْمٌ كبير ! ذلك شأن الأدباء والمؤرخين ، منذ هجروا طريقة الأوّلين من الرواة ، الذين ما كانوا يستبيحون لأنفسهم روايةَ خبر من الأخبار ، من غير أن يُضيفوه إلى مصدره ، ويردّوه إلى أوّل مَن رواه .

أجلْ ، قد أهمل المؤرخون والأدباء ذلك ، حتى اجترأ أحدُهم على أن يُعلن هذا الإهمالَ ويتمدّحَ به ، كأنه يكره أن يذكُر المصادرَ التى أخذ منها ، فيُظهِر الناسَ على حظّه من العلم ، ونصيبه من الاطلاع ، أو كأنه يريد أن يُحيط كتابتَه من الإلغاز والتعمية ، بما يجعلُه رمزًا خالدًا إلى أنه قد علِمَ ما لم يتعلَّم الناس .

ذلك فنٌّ الاحتكارِ قد مضى به الزمان ، منذُ مضى بالكهنة من المصريين ، ولم يَبْقَ منه الآنَ إلاّ ما كان من جبر العظمِ يحتكر طريقتَه القديمةَ بعضُ الناس فى مصر . ولو أن هذا الفنّ من الاحتكار قليل الضرر للعلم ، لهانَ علينا أن نسمح به لأولئك الذين لا يريدون أن يكسبوا منزلتهم وشهرتهم إلا من الغموض والخفاء . ولكن فيه من تضليل العقول ، وخِداع الألباب ، وإفساد العلم ، ما لا ينبغى أن تُغَضّ عليه الأجفان .

لقد كان يمتاز الرجلُ فى العصر القديم ، بكثرة ما أحصى من العلم ، وما وعَى من الأخبار ؛ فكان من المعقول أن يضنّ على الناس بمصادر علمه حتّى لا يشارك فيه . أمّا الآن فقد أصبح الرجلُ يمتاز بحسن البحث والتحليل ، وإتقانِ التّتَبّعِ والاستقراء ، وإجادة النظر والاستنباط . ومن الواضح أنّ إظهار

مصادره للناس ، يعينه على إظهار حظّه من ذلك ، وإعلان قسطه من التفوُّق والنبوغ .

تَمنعنا الأمانةُ للعلم ، والرغبةُ فى الحقّ ، أن نسلكَ هذه الطريقةَ المعوجَّة ، أو نذهبَ هذا المذهبَ الخَطِل . إنّما نريد أن نُظهِر الناسَ على مصادرنا كافة ، لا نستثنى منها جليلاً ولا دقيقًا ، وإنّما نودُّ لو تتبّعوا هذه المصادرَ ، وقرنوا إليها ما استنبطنا منها ؛ فإن ذلك أحْرَى للحقّ أن يتأيّد ، وللرأى أن يعظُم حظه من الصواب . بل ليس يكفينا أن نَسرُد المصادرَ سردًا ، أو نحصيها عدًّا ؛ ولكنّا نحبُّ أن ننتقدَها مع الإيجاز ، مصدرًا مصدرًا ، حتى يكون القارئ على بيِّنة منها .

وإذْ قد بينا أنّ الرجلَ خاضعٌ فى أدبه وعلمه ، لزمانه ومكانه ، فليس لنا بُدٌّ من أن نقدّم بين يدى هذا الكتاب ، فصلاً فى عصر أبى العلاء ، وآخر فى بلده . ولما كانت الأسرة أشدّ ما يُحيط بالرجل أثرًا فيه ، خصَّصنا فصلاً آخر لأسرة أبى العلاء . فإذا فرَغنا من هذا كله عَمَدنا إلى الحياة التاريخية للرجل ، ففصّلناها تفصيلاً ، ثم انتقلنا منها إلى منزلته الأدبيّة ، فبيّنا قسمته من الشعر والنثر ، وخصائصه فيهما ، ثمّ إلى منزلته العلميّة فشرَحناها شرحًا مستوفى . ومن بعد هذا كله ، تناولنا فلسفته فاجتهدنا فى أن نكشفَ عنها ونجليها ، ونبين تأثّرَها بما قبلها ، وتأثيرَها فيما بعدها ، معنيِّين عنايةً خاصة بفلسفته الإلهية والخلقيّة ، لكثرةِ ما كان فيهما من اختلاف الآراء ، وافتراقِ الأهواء .

٨

ونحن نرجو أن يكون اللهُ قد وفّقنا إلى أن نمثل بهذا الكتاب ما نحبّ أن نمثّله ، من ثنائنا العطر وشكرنا الجزيل ، واعترافِنا بالصنيعة للجامعة المصريّة ، التى قضى الله أن نكون أثرًا من آثارها .

وإنّا لنرَى هذا لأنفسنا شرفًا ولقَدْرِنا رفعة ، ولشأننا نباهة ، ونحرِصُ أشدَّ الحرصِ على أن نؤدّىَ إليها ما لها علينا ، من حقّ العمل الصالح فى نصر العلم وتحقيقه ، وإباحته للناس .

نشكر الجامعة ونثنى عليها ، وإنما يتقسَّم هذا الشكرَ والثناءَ طائفتان : إحداهما طائفةُ مجلس الإدارة ، أولئك الذين جدُّوا فى خدمة الجامعة ، وإنهاضِها ، والأخرى طائفةُ الأساتذةِ ، أولئك الذين بهم قامت الجامعة ، وأولئك الذين اشتركوا فى تكوين حياتِنا العقلية ، فأمدَّنا كلٌّ منهم بما له من روح وقوّة ، حتى نشأ لنا من هذه الأرواحِ والقوى — على اختلافها — مِزاجٌ عقلىٌّ خاصٌّ ، نرجو أن يكون معتدلاً إن شاء الله .

نسجل اعترافَنا بالجميل لأساتذتنا المصريين والإفرنج فى الجامعة ، ولأساتذتنا فى الأزهر الشريف ، لا نستثنى منهم أحداً ولا نفرّق بينهم فى الإجلال والإكبار .

٩

ولقد قال أبو العلاء فى آخر كتابه ، المعروف برسالة الغفران : إنَّه رجل مستطيعٌ بغيره ؛ أى أنَّه لم يكن ينفرد بقضاء ما يحتاج إليه من قراءة وتحرير ، ونحو ذلك . ونقل عنه ياقوت الحمَوىّ شكرَه للذين أعانوه على الدرس والتأليف فكتبوا عنه ما أمْلَى عليهم ، من غير أن يكلِّفوه على ذلك أجراً ، أو يقتضوا منه ثمناً . وإذا كان القضاء المحتوم قد أنزلنا من هذه الحاجة إلى الناس ، منزلةَ أبى العلاء ، وأتاح لنا من الأصدقاء والمخلصين مثلَ من أتاح له ، فلا جَرَم حَقَّ علينا أن نؤدّىَ إلى أصدقائنا ، ما أدَّى أبو العلاء إلى أصدقائه ، من الشكر والثناء . فنرجو من الله أن يتولَّى جزاءَهم عن ذلك ، فإنَّه به حَرِىٌّ ، وعليه قدير .

طه حسين

٢٠ أبريل سنة ١٩١٤

مصادر الكتاب

تنقسم المصادرُ التى رجعنا إليها فى هذا الكتاب قسمين متمايزين : الأوّل ما رجعنا إليه فى تحقيق الحياة الخاصّة بأبى العلاء ، وما يتّصل بعلمه وأدبه وفلسفته ، والثانى ما رجعنا إليه فى تحقيق بعض المسائل الفلسفيّة ، أو التاريخيّة ، أو الأدبيّة ، التى اضطررْنا أن نَعرِض لها ، ليكون فهمُ حياة أبى العلاء محقّقًا ميسورًا .

القسم الأول

فأمّا القسمُ الأوّلُ من هذه المصادر ، فله عيبٌ مشترَكٌ بين جميع كتبه ومؤلّفاته ، لا يشِذّ عنه كتاب ، ولا يخرج منه مؤلَّف ، وهو قلة التحقيق والقصورُ عن بلوغ الغاية منه ؛ فليس فيمن كتَبَ عن أبى العلاء من القدماء والمحدَثين ، ومن العرب والفرنج ، مَنْ درَس آثارَ الرجلِ درسًا مستقصى يمكنه من أن يحكم عليه حكمًا صحيحًا قاطعًا ، لا سبيل إلى الشكّ فيه .

ومن هنا تناقضت هذه الكتبُ فيما بينها تناقُضًا شنيعًا ، بل وقعَ التناقضُ فى الكتاب الواحدِ غيرَ مرّة . وإنما تتفاوتُ هذه الكتبُ بمقدارِ ما بين مؤلّفيها من التفاوت ، فيما أخذوا به من نصيب قليل أو كثير من التحقيق التاريخىّ ، ومن كثرة الرواية وحسن الاطّلاع ، وجودة المنهج فى الترتيب وتنسيق البحث . وأكثر ما يظهر التفاوت بين كتب العرب والفرنج . ونحن مشيرون إلى هذه الكتبِ إشارةً مفصّلة .

المصادر العربية القديمة

فأولها « مُعجَم الأدباء » لياقوت . وفيه ترجمة جيدة لأبى العلاء ، تمتاز بتفصيل مفيد فى أسرته ، وبرسائلَ نافعة فى المناظرة بين أبى العلاء وبين داعى الدعاة بمصر، فى استباحة أكلِ الحيوانِ وما يتولّدُ منه . ومنها « إنباهُ الرُّواة » للقفطىّ ،

ويمتاز أيضاً بتفصيل شيء من سيرة أبي العلاء في منزله(١)، ويوشك أن يكون عاميَّ العبارة . ومنها « الوافي بالوَفَيات » للصَّفَدي(٢) . ومنها « تاريخ الذهبي » ولا يوجد كله في مصر . وإنّما نشر الأستاذ مَرْجُلْيُوثُ ترجمةَ أبي العلاء منه ، في رسائل أبي العلاء التي طبعها بأكسفورد سنة ١٨٩٤ م . وهو صورة ما في القفطيّ ، وفيه أخبارٌ تُنقَل عن الحافظ السِّلفيّ . وهذه المصادر الأربعة ، تتفق في إيراد ثَبت الكتب التي ألّفها أبو العلاء ، كما تتّفق في أنّ لفظَها يكاد يتّحد في كثير من المواضع ، وذلك يدلُّ على أنّها ربّما استقَت من مصدر واحد . وليس لهذه المصادر من التحقيق التاريخيّ — بالمعنى الذي نفهمه — حظّ ، وإنّما هي رواياتٌ يجب أن توضَع موضِعَ الشكّ وألاّ يُقبَل ما جاء فيها إلاّ مع الاحتياط الشديد . ومنها « وَفَيَات الأعيان » لابن خلّكان ، وفيه حياة أبي العلاء مجملة ، ولكنّه يشير إليه مرّات إشارات نافعة ، ويرجع إليه في تحقيق كثير من الأسماء التي تتصل بأبي العلاء .

المصادر العربية الحديثة

تمتاز هذه المصادرُ بشيء من الميلِ إلى المنهج التاريخيّ الحديث في تحقيق ما نَعرض له من شأن أبي العلاء . ولكنّ هذا الميل — على نقصه في هذه المصادر جميعاً ، وبعدِه عن نِصابِه المعقولِ — يتفاوتُ فيها قِلّةً وكثْرة ، كما يتفاوتُ صحّةً وفساداً . فمنها « تاريخ آداب اللغة » للمرحوم جورجي زيدان ، وكذلك مجلّة الهلال . ولهذين المصدرين مَزيّةٌ اطلاعِ صاحبِهما على ما كتَب الفرنج في تاريخ أبي العلاء . ولكن المرحوم جورجي زيدان ، علَى كثْرةِ اطّلاعِه وجَوْدةِ بحثه ، لم يستطع أن يَسلَم من عيبين : أحدهما قَهْريّ يُعذَر فيه ، وهو بعدُه عن الروح التاريخيّ الصحيح ؛ لأنّ الرجلَ لم ينشأ نشأةً علميّة منظمة ، وإنّما هو عِصاميّ — في العلم — إنْ صحّ هذا التعبير . الثاني

(١) توجد نسخة من هذا الكتاب مصورة بالتصوير الشمسي في دار الكتب المصرية بالقاهرة .

(٢) رجعنا إلى سيرة أبي العلاء في جزء من هذا الكتاب يوجد مع أجزاء مخطوطة خطاً مغربياً بمكتبة أحمد تيمور باشا .

العجَلة والإيجاز ، وإنّما اضطرّه إلى ذلك ، ميلُه إلى الإحاطةِ بكلّ شيء ، والكتابةِ فى كل شيء ، وإلى أن تكون كتُبه أقربَ إلى ما يسمُّونه دوائرَ المعارف . منها إلى كتب البحث والتمحيص . ويوشِكُ أن يكون للمرحوم جورجى زيدان ، فيما كتب عن أبى العلاء — لا سيما فى الهلال — صَدًى للأستاذ مَرْجُلْيُوث .

ومنها « تاريخ آداب اللغة العربية فى العصر العباسى » للأستاذ أحمد عمر الإسكندرى . وفى هذا الكتابِ نُزُوع إلى المنهج الحديث فى تاريخ الآداب . ولكنّ صاحبَه لم يُوفَّق إلى إصابةِ هذا المنهج ، ولم يستطع أن يَتخلّص من أغلال المتقدمين ، الذين إنّما كانت كتبهم فى الآداب صُحُفًا من الثناء والتقريظ .

ومنها « عقيدة أبى العلاء » لحسين فتّوح أفندى ، وهو كتابٌ صغير اقتنع فيه صاحبُه خطأً بنُسك أبى العلاء وتورُّعِه : فكاد يلحِقُه بأصحاب الكَرامات . والكتابُ يخلو من كل فِقه تاريخىّ ، وليس له حظّ من التحقيق .

ومنها « تاريخ أبى العلاء » للشيخ محمّد حلمى طمّارة ، وقد أراد صاحبُ هذا الكتاب أن يُنصِف الرجلَ ويبيِّن وجهَ الحق فى فلسفته ودينه ، غيرَ مُنْحازٍ إلى المسلمين ولا إلى الملحدين ، ولكنّه لم يستطع أن يصل إلى هذه الغاية ، فاضطرَّ إلى أن يتَلطف لرجال الدّين ، الذين هم أساتذتُه فى مدرسة القضاء ، فزجَّ بأبى العلاء بين المسلمين زَجًّا يظهر فيه تكلُّف الأزهريين ، وتأوُّل الفقهاء .

وكلُّ هذه الكتبِ قديمها وحديثِها ، ليست فى حقيقة الأمر من التاريخ فى شيء ، وإنما هى مصادرُ للتاريخ . ومن الواضح أنّ بينَ التاريخِ ومصادرِه فرقًا بعيدًا .

تَنْفعُنا هذه الكتبُ حين نُريدُ أنْ نؤرّخ حياةَ أبى العلاء ، أو رأىَ الناس فيه ، كما تنفعنا آثارُ المصريين القدماء حين نريد أن نؤرخ أحدَ الفَراعِنة ، من حيثُ هى مصادرُ خالِصَةٌ للتاريخ ، من غير أن تَظفَر من الفقه التاريخىّ بالحظّ الموفور .

المصادر الفرنجية

هذه المصادرُ هى التى يصح أن نسمِّيَها تاريخًا حقًّا ؛ لأنَّ لها من التاريخ كلَّ خصائصه ، وكلَّ مناهجِ البحث عنه ، لولا أنَّ كُتَّابَها قد شاركوا كُتَّاب العرب فى أنَّهم لم يُنعِموا درسَ آثارِ أبى العلاء . وليس فيهم من استقصى قراءة اللزُوميَّات ، وسقط الزَّنْد ؛ ولذلك عميت عليهم فلسفةُ الرجل وعقيدتُه ، وكثيرٌ من الحقائقِ التاريخيَّة التى تتصل بحياته . ثُمَّ هم إلى ذلك ، أعجزُ من أن يفهموا لغةَ أبى العلاء حقَّ فهمِها ؛ لبُعدِهم عن أسلوبه الغريب ، وتعمُّقِه الشديد . على أنَّهم حين درسوا رسائلَه ، استطاعوا أن يستخرجوا منها أكثرَ ما يستطيع المؤرِّخ أن يستخرجه من مصدرٍ تاريخى شديدِ الغُموض .

من هذه المصادر : الإنكليزىُّ والفَرَنْسىّ ، ولا نذكرُ الألمانىّ ؛ لأن جهلَنا باللغة الألمانية حالَ بيننا وبين ما كُتِب فيها من طرائف البحث عمَّا للعرب من أدب وتاريخ .

المصادر الإنجليزية

من هذه المصادرِ مقدِّمة الأستاذ مَرْجليُوث لرسائل أبى العلاء ، التى ذكرناها آنفًا . وهى على جَودتها وحُسنِ طرائقها فى البحث والترتيب ؛ وكثرةِ ما قرأ مؤلفُها من كتب ، وقاسَى من عَناء ، لم تَخْلُ من نقص ظاهر نحن مُبَيِّنُوه ، ودالُّون عليه فى مواضعه من هذا الكتاب . ومنها « تاريخ اللغة العربية » للكاتب نيقُلْسن ، وقد ترجم فيه لأبى العلاء ترجمةً مختصَرة ، توشِك أن تكونَ صدًى لِمَا كتب مَرْجُليُوث ، ولكنَّها مع ذلك تنِمُّ عن اطِّلاع صاحبها على ما كتبَ الألمانُ عن أبى العلاء ، ولا سيما « فون كريمر » . ومنها المجلَّة الآسيَوية الإنجليزية سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩٠٢ . وهى مُفيدةٌ كلَّ الفائدةِ فيما يتَّصل « برسالة الغفران » .

المصادر الفرنسية

مِن هذه المصادرِ ترجمة « سلمون » لمختار الرسائل واللزوميات ؛ فقد قدَّم بين يَدَى هذه الترجمة مقدّمة ، لها ما لمقدّمة مرجليوث من المحاسن والعيوب ، ولكنَّها تمتازُ ببحث نافع على إيجازه ، عن فلسفةِ أبى العلاء وعلاقتِها بفلسفة الهِند . ومنها « تاريخ الآداب العربية » للأستاذ هيار ، و « دائرة المعارف الإسلاميَّة » . وفى هذين المصدرين ترجمة مختصرة لأبى العلاء . إلاَّ أنَّ دائرةَ المعارف ، تمتاز بأنَّها استطاعت أن تُدْرِك ما بينَ فلسفةِ أبى العلاء وبين فلسفة « أبيقور » من النسبة . ومنها « سفرنامة » تأليف ناصرى خسرو بالفارسية[1] وترجمة شفر إلى الفرنسية . وإنَّما عدَدناه مصدرًا فرَنسيًّا ، لأنَّا قرأنا ترجمتَه حينَ جهِلنا لغةَ أصلهِ ، وهو الكتابُ الوحيدُ الذى وصَف أبا العلاء بضخامة الثروة ، وكثْرة المال .

القسم الثانى

هذا القسمُ كثيرٌ مختلف ، لأنَّنا نرجع فيه إلى كلِّ ما علمنا وقتَ درسِنا لأبى العلاء وقبله ، من تاريخ العرب ، وآدابهم ، وفلسفتهم ، فى أيام بنى العباس ، ولكنَّا نَسرُد منه أسماء الكتبِ التى رجَعنا إليها وقتَ الدرس ، والتى لا بدَّ لأىِّ باحث عن عصر أبى العلاء ، مِنْ أن يتَّخِذَها إمامًا .

فمنها تاريخُ ابنِ الأثير ، وابنِ خلدُون ، وأبى الفِداء ، والنجومُ الزاهرة لأبى المحاسِن ، وتاريخُ حلَب لكمال الدين بن العَديم ، ومسالكُ الأبصار فى

(١) طبع أصله الفارسى وترجمته الفرنسية بباريس و يوجد بالمكتبة السلطانية .

أخبار ملوك الأمصار لابن فضل الله العمرىّ ، وتاريخُ الهند ، وكتاب الآثار الباقية للبيرونىّ . ويُرجَع إلى هذه الكتب فى تحقيق الحياة السياسية والاجتماعية لعصر أبى العلاء . ومنها الأغانى ، ويتيمة الدّهر للثّعالبى ، والشعر والشعراء لابن قُتَيْبة ، والكامل للمبرد ، وكتابُ الصناعتين ، وديوانُ المعانى لأبى هلال ، والموازنةُ بين الطائيين للآمِدىّ ، والوَساطةُ بين المتنبى وخصومه للقاضى علىّ بن عبدِ العزيزِ الجرْجانى . ويُرجَع إلى هذه الكتب فى تحقيق الحياة الأدبيّة لهذا العصر .

ومنها الفهرست لابن النّديم ، ومُرُوجُ الذهب للمَسعُودىّ ، وتاريخُ اليَعقوبىّ ، وطبقاتُ الأمَم لابن صاعدٍ الأندلسىّ . ويُرجَع إليها فى تحقيقِ الحياةِ الفلسفيّةِ لهذا العصر .

ومنها المواقفُ للقاضى عضد الدين ، ومحاضراتُ الأستاذ « سانتلانه » التى ألقاها بالجامعة المصرية ، والمِلَلُ والنحَل للشّهْرسْتانىّ ، والفصل لابن حَزْم ، ويرجع إليها فى تحقيق المذاهب الفلسفيّة لأبى العَلاء .

ومُعجم البُلدان لياقوت الحَمَوِىّ ، والمسالك والممالك لابن حوقَل ، وإليهما رجَعنا فى بعض المسائل الجغرافيّة .

أمّا كتُبُ أبى العلاء نفسِه ، فظاهرٌ أنّها أوفرُ المصادر نفعًا ، وأجلها خَطَرًا .